للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ — ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٢٣ —

الرافعي والعقاد

لقد مات الرافعي — رحمه الله — فانقطع بموته ما كان بينه وبين خصومه من عداوات . وما أريد أن أوقظ فتنة نائمة يتناولني لهيبها أولَ ما يتناول ، فما لي طاقة على حمل العداوة ، ولا اصطبار على عنت الخصومة ، ولا احتمال على مشقة الجدال ؛ وإنما هو تاريخ إنسان له على العربية حق جحده الجاحدون فنهضت للوفاء به ؛ فإن كنت أكتب عن أحد من خصومه أو أصحابه بما يؤلم أو يسيء فما ذلك أردت ، ولا إليه قصدت ، ولا به رضيت ؛ ولكنها أمانة أحملها كارهاً ، وأضطلع بعبئها مضطراً ، لأؤديها إلى أهلها كما تأدّت إليّ . وإني لأعلم أني بما أكتب من هذا التاريخ أصنع نفسي بالموضع الذي أكره ، وأتعرض بها لما لا أتوقع ؛ ولكن حسبي خلوص النية ، وبراءة الصدر ، وشرف القصد ؛ ولا عليّ بعد ذلك مما يكتب فلان ، ولا مما يتوعّد به فلان ؛ فإن كان أحد يريد أن يصل بي ما كان بينه وبين الرافعي من عداوة فانقطعت ، أو يربط بي رابطةً كانت بينه وبين فلان فانفصمت ، أو يتخذ من الاعتراض عليّ زلفى إلى صديق يلتمس ودّه ، أو يجعل مما يكون بيني وبينه سبيلاً إلى غرض يرجو النفاذ إليه ، أو وسيلة إلى هوى يسعى إليه — إن كان أحد يريد ذلك فليمضِ على إرادته ، وإن لي نهجي الذي رسمْت ، فلنفترق بنا الطريق أو تلتق على سواء ، فليس هذا أو ذاك يعانني من المضيّ في سبيلي . ومن الله التوفيق !

* * *

وهـذه خصومة أخرى من خصومات الرافعي ، ومعركة جديدة من معاركه . وإني لأشعر حين أعرض لتبش الماضي فأذكر ما كان بين الرافعي والعقاد ، أني كمن يدخل بين صديقين كان بينهما في سالف العمر شحناء ثم مسحت على قلبيهما الأيامُ فتصافيا ، فإنه ليُذكّر بما لا ينبغي أن يُذكر . والموت يحسم أسباب الخلاف بين كرام الناس ؛ فإذا كان بين الرافعي والعقاد عداوةٌ في سالف الأيام فقد انقطعت أسبابها ودواعيها ، فإن بينهما اليوم لبرزخاً لا تجتازه الأرواح إلى أخراها إلا بعد أن تترك شهواتها وأحقادها وعواطفها البشرية . فهنا ناموس وهناك ناموس ، ولكل عالم قوانينه وشريعته ؛ فما تخلص ضوضاء الحياة إلى آذان من في القبر ، ولا ينتهي إلى الأحياء من عواطف الموتى إلا ما خلفوا من الآثار في دنياهم

هنا رجل من الأحياء ، وهناك رجل في التاريخ ، وشتان بين هنا وهناك ؛ فما أتحدث اليوم عن خصومة قائمة ، ولكني أتحدث عن ماض بعيد . والرافعي الذي يحيا بذكراه اليوم بيننا غير الرافعي الذي كان ، فما ينبغي أن تجدد ذكراه ماضيَ البغضاء ، وهذا عذيري فيما أذكر من الحديث ...

لم يكن بين الرافعي والعقاد قبل إصدار الطبعة الملكية من إعجاز القرآن غير الصفاء والود ؛ فلما صدر هذا الكتاب في طبعته الجديدة أحدث بينهما شيئاً كان هو أول الخصام ...

حدثني الرافعيّ قال : « سعيت لدار المقتطف لأمر ، فوافقْت العقاد هناك ، ولكنه لقيني بوجه غير الذي كان يلقاني به ، فاعتذرت من ذلك إلى نفسي بما ألهمتني نفسي ، وجلسنا نتحدث . وسألته الرأي في إعجاز القرآن ، فكأنما ألقيت حجراً في ماء آسن ... ... ومضى يتحدث في حماسة وغضب وانفعال ، كأن ثاراً بينه وبين إعجاز القرآن . ولو كان طعنه وتجريحه في الكتاب نفسه لهان عليّ ، ولكن حديثه عن الكتاب جره إلى حديث آخر عن القرآن نفسه وعن إعجازه وإيمانه بهذا الإعجاز ... ... أصدقك القولَ يا بني : لقد ثارتْ نفسي ساعتئذٍ ثورة عنيفة ، فكدت أفعل شيئاً . إن القرآن لأكرم وأعز ... ولكني آثرت الأناة ... »

قال الرافعي : « وأخذت أناقشه الرأي وأبادله الحوار في هدوء وإن في صدري لَمِرجلاً يتلهب ؛ إذ كنت أخادع نفسي فأزعم لها أنه لم يتخذ لنفسه هذا الأسلوب في الهجوم على فكرة إعجاز القرآن

إلا لأنه حريص على أن يعرف ما لا يعرف ، وعلى أن يقتنع بما لم يكن مقتنعاً به ؛ فأخذت معه فى الحديث على هدوئى وثورة أعصابه .. ولم أفهم إلا من بعدُ ما كان يدعوه إلى ماذهب إليه .. »

قال : « لقد كان العقاد كاتباً من أكبر كتاب الوفد ، ينافح عنه ويدعو إليه بقلمه ولسانه عشر سنين ، وإنه ليرى له عند « سعد » منزلة لا يراها لكاتب من الكتاب ، أو أديب من الأدباء ، وإن له على سعد حقّا ؛ ولكن سعداً مع كل ذلك لم يكتب له عن كتاب من كتبه : « كأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم » وكتبها للرافعى وليس له عليه حق مما عليه للعقاد ... »

قال الرافعى : « ... من هنا يا بنى كانت ثورته . كانت ثورة النيرة ... لا ثورة الأديب الناقد الذى لم يقنع بما كتب الكتّاب عن إعجاز القرآن فهو يلتمس المعرفة والاقتناع . وعرفتُ ذلك من بعدُ ، فما بدا علىّ ما فى نفسى من الانفعال ، ومضيت معه فى الحديث فى وجه جديد . قلت : أنت تجحد فضل كتابى فهل تراك أحسن رأياً من سعد ؟ »

قال الرافعى : « وفهم ما أعنيه فقال : وما سعد ؟ وما رأى سعد ؟ »

قال الرافعى : « وطويت الورقة التى كان يكتب فيها حديثه[1] فقبضت عليها يدى ثم قلت : أفتراك تصرّح برأيك هذا فى سعد لقرائك وإنك لتأكل الخبز فى مدح سعد والتعلق بذكراه ... ؟ قال : فاكتب إلىّ هذا السؤال فى صحيفة من الصحف تقرأ جوابى كما عرفته الآن ... ! »

قال الرافعى : « وابتسمت لقوله ذاك وأجبته : يا سيدى ، إن الرافعى ليس من الحماقة بحيث يسألك هذا السؤال فى صحيفة من الصحف ، فتنشر السؤال ولا ترد عليه ، فيكون فى سؤالى وفى صمتك تهمة لى ، وتظل أنت عند قرائك حازماً أريباً بريئاً من التهمة مخلصاً لذكرى سعد ! »

قال الرافعى : « وما قلتُ ذلك — وإن ورقته فى يدى أشد عليها بأناملى — حتى تقبض وجهه ، وتقلصت عضلاته ، ثم قال فى غيظ وحنق : ومع ذلك فما لك أنت ولسعد ؟ إن سعداً لم يكتب هذا الخطاب ، ولكنك أنت كاتبه ومزوّره ، ثم نحلته إياه لتصدر به كتابك فيروج عند الشعب ! »

قال الرافعى : « وما أطقت الصبر بعد هذه التهمة الشنيعة ، ولا ملكت سلطانى على نفسى ، فهممت به .. فدخل بيننا الأستاذ صروف ، فدعا العقاد أن يغادر المكان ليحسم المراك ويفض الثورة ! »

* * *

هذه رواية الرافعى ، حدثنى بها غير مرة فى غير مجلس ، كما تحدّث بها إلى غيرى من أصدقائه وخاصته ؛ فما لى فيها إلا الرواية والتصرف فى بعض الكلام تأدباً مع الأستاذ العقاد وكرامة لذكرى الرافعى

على السفود

وفرغ الرافعى من مقالات عبد الله عفيفى التى كان ينشرها بعنوان (على السَّفُّود) ؛ ثم ذهب مرة لزيارة صديقه الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب العصور ، فسأله تتمّة هذه السلسلة فى نقد الأستاذ عفيفى ، فاعتذر الرافعى وقال : حسبي ما كتبت عنه وحسْبه . قال الأستاذ مظهر : فاكتب عن غيره من الشعراء . إن فى هذه المقالات لمثالا يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص ووثنية الصحافة !

فتنبه الرافعى إلى شىء فى نفسه ، وجلس إلى مكتب فى دار العصور فكتب مقاله الأول من كتاب على السفود ؛ وتوالت مقالاته من بعد فى أعداد المجلة متتابعة فى كل شهر . فلما تمت هذه المقالات نشرها الأستاذ اسماعيل مظهر فى كتاب قدّم له بمقدمة بامضائه يبين فيها ما دفعه إلى نشر هذا الكتاب الذى لم يكتب على غلافه اسم مؤلفه ، ورمز إليه بكلمة « بقلم إمام من أئمة الأدب العربى »

وفى الأسبوع المقبل إن شاء الله حديثنا عن الكتاب ومنهجه

« شبرا » محمد سعيد العريان

* * *

إلى الأديب أحمد سعد الهوارى بملوى لأشكر له ، وأعتذر من عدم نشر مقاله ؛ لأنى لا أريد أن يصرفنى عن هذا الحديث شىء من جدال الرأى فيما لا يغير شيئاً من حوادث التاريخ

(١) كان الرافعى أصم كما يعرف القراء ؛ فمن ذلك كان أكثر ما يدور بينه وبين الناس من الحديث كتابة فى ورق !